صورة عائلية

مريم الزعابي

صورة عائلية

مجموعة قصصيّة

Qindeel | قنديل

A Family Portrait

A Collection of Stories

Mariam Alzaabi

صورة عائلية

مجموعة قصصيّة

مريم الزعابي

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-7012930 تاريخ 2018/9/23

ISBN: 978 - 9948 - 39 - 818 - 9

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2018

الطبعة الأولى: تشرين الأول / أكتوبر 2018 م – 1440 هـ

أُنجزت هذه المجموعة القصصية بإشراف

القاص إسلام أبو شكير

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

المحتويات

مقدمة.. 11

أشخاص من مخمل.............................. 13

امرأة.. قطّة.. حديقة.......................... 19

رسالة رسمية................................ 23

إعلانات مبوبة............................... 27

رحلة.. 31

صوت.. 35

صورة عائلية................................ 37

صور مزيفة................................. 43

ذكريات تسعة أشهر........................... 49

لعبة الاختباء.............................. 53

عقوبة...................................... 59

مشروع نابض.. وجيل واعد

منذ إطلاق «**برنامج دبي الدولي للكتابة**» عام 2013، تحت رعاية سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس **مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة**، كان علينا مضاعفة الجهود؛ لنكون أكفاء لتحمُّل مسؤولية إعداد جيل من الكتَّاب الشباب لحمل مشعل الفكر، وليصبحوا في مصاف الكتَّاب العالميين، وقد آلينا على أنفسنا أن نذلِّلَ كلَّ العقبات التي تحُول دون نجاح هذا المشروع الحيوي النابض، الذي يعكس وجهاً حضاريّاً آخر من وجوه دبي.

وها نحن ذا، نرى عشرات الكُتَّاب الشباب الذين تخرجوا في البرنامج في مختلف حقول الكتابة، حيث الرواية والقصة والترجمة والكتابة للأطفال واليافعين، والأمل معقود باتجاه فنون كتابية أخرى؛ ليكتمل المشهد الإبداعي مع جيل موهوب يتقن فنون الكتابة الاحترافية، حسب منهج علمي ولغوي، وتقنية صحيحة، جيل تدرَّب على أيدي أساتذة أكفاء، نقلوا له المعارف والخبرات والمهارات اللازمة؛ لتكتمل دورة المشهد الاحترافي، والهدف الكبير أن نصل بهم إلى العالمية.

لقد أعطى برنامج دبي الدولي للكتابة للشباب الموهوبين إبداعيّاً، جرعةً من الأمل ليحقِّقوا حلمهم، ولم نكتفِ بتدريب الموهوبين داخل الإمارات؛ بل انطلقنا عربيّاً عبر ورشٍ تدريبيَّةٍ في تونس ومصر والكويت، متجاوزين الحدود الجغرافية للوصول إلى الشَّباب العربي في بلدانهم، وإطلاق ورشات تدريبية مع مدربين محليين مشهود لهم بالكفاءة؛ لتصبحَ الفائدةُ من البرنامج أوسعَ وأشمل.

لقد كان هدف البرنامج منذ البداية، دعم المؤلفين والوصول بهم إلى العالمية، في شتَّى مجالات المعرفة من العلوم والبحوث إلى الأدب، وقد لمسنا نتائج طيبة خلال الورشات الماضية؛ فقد فازت كتب من البرنامج بجوائز مرموقة، وبات يُنْظَرُ إلى هذه التجربة بكثير من التقدير والاحترام داخل الإمارات وخارجها. وها نحن اليوم ندفع بالكاتبة مريم الزعابي إلى الساحة الثقافية، عبر هذه المجموعة القصصية المتميزة التي جمعت فيها معاني وجدانية سامية بلغة بديعة، وأنجزتها خلال البرنامج، ونحن على يقينٍ بأنها ستكونُ موضعَ تقديرٍ وترحيبٍ من القرَّاء والنقَّاد والمهتمِّين.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

صور مزيفة

تناثر الغبار على يدي وانتشر بعضه على أطراف جسدي وعلى قميصي الأسود. كان الصندوق شبة مغلق.

(ابتسمي)..

هكذا كان مكتوباً.. فابتسمت ابتسامة مزيفة، وبدأت في فتح الصندوق. رأيت كاميرا، فأمسكتها بيدي. ثم لاحظت وجود صور متناثرة وأشرطة متعددة. حملت شريطاً لا على التعيين، ووضعته داخل الكاميرا.

ـ بدا يوماً جميلاً، وهذه سمر جالسة إلى طاولة الطعام. لقد اخترت لها ملابسها اليوم. أجبرتها على أن تلبس ثوباً أبيض اللون، فقد سئمت من الألوان الداكنة التي تلبسها.

ـ سمر.. هلا ابتسمتِ؟

ـ توقف عن التصوير!

وصلنـا المطعـم، وننتظـر الفطـور، طلبـت سـمر «بـان كيـك» ومعـه قهـوة مـع سـكر. وأنـا كالعـادة سـلطة فواكـه ومـاء. هـذا المـكان هـادئ يمتلـك تصميمـاً قديمـاً ويطـلّ علـى البحـر. إنـه مطعمنـا المفضـل.

ـ الآن دورك لتتحدثي..

(انتهى التسجيل)

أخـذت شـريطاً آخـر، وكان مكتوبـاً عليـه ملاحظـة: (يـوم جميـل). وضعـت الشـريط داخـل الكاميـرا.

بـدأ بضحـكات وأصـوات عاليـة، لكـن الصـورة لـم تكـن واضحـة. ثـم بـدأ كل شـيء يتضـح..

ـ سـنة حلـوة يـا جميـل.. سـنة حلـوة.. سـنة حلـوة.. سـنة حلـوة يـا جميـل..

كان طفـل صغيـر بيـن يـدي يطفـئ الشـموع، وأصـوات التصفيـق كانـت عاليـة. قبّلتـه علـى جبينـه بحـرارة، والشـموع مرسـومة برقـم ثلاثـة. يبـدو أن عمـره أصبـح ثـلاث سـنوات، وثمـة بالونـات كثيـرة تحيـط بنـا..

(انتهى التسجيل)

من بين تلك الصور المبعثرة لفتت انتباهي واحدة. حملتها بيدي. كنت أرتدي ثوباً أسود اللون، وشعري كان قصيراً جداً، وقرطان كبيران يتدليان من أذني. كانت السعادة تشعّ من عيني. قلبتها لأرى تاريخ الصورة، لكنني وجدت كلاماً طويلاً مكتوباً:

الغالية سمر

أتمنى أن تقرئي هذه الرسالة دون أن تشعري بخجل. لأنك السبب!

كل شعور حملته، سواء كان جميلاً أو سيئاً، وكل ما حدث وما سوف يحدث بسببك. بسبب عنادك. وبسبب ما أحاول أن أصلحه بك. بسببي أيضاً، لأنني ضعيف حين يكون الحديث عنك. أشعر بأنني ضعت يا سمر. لماذا تفعلين هذا بنا؟ لماذا لم تكوني قوية كما اعتدت أن تكوني؟ إنني تائه، ولا أعلم كيف أخرج من هذا الحزن يا سمر. صورتك جميلة، وأنت دائماً جميلة. وحتى لو أصبحت بعيدة عني. حتى لو ذبل لون وجهك، وأصبح باهتاً. لا تخجلي. أرجوك. ولا ترفضي زيارتي»..

أغمضت عيني محاولة استرجاع شريط حياتي وفشلت. بدأت أبحث من جديد. أمسك الصور، وأنثرها على

الغبار. لن أفقد الأمل هذه المرة أيضاً. سوف أحصل على كل شيء..

أمسكت شريطاً آخر، ووضعته، ثم ظهرت لي إشارة (لا يوجد تسجيل). رميت الشريط بعيداً، وبدأت أبكي بصوت عالٍ، لعلّ أحداً ينقذني. ربما أستطيع أن أجد كل شيء أريده دفعة واحدة من خلال هذا البكاء.

أخرجت شريطاً آخر. ووجدت ملاحظة عليه: (نضحك معاً.. نحزن معاً). وضعته داخل الكاميرا بغضب، والدموع تسقط على شاشة الكاميرا، وشغلته.

ـ إننا ننتظر في المستشفى ليخبرنا الطبيب عن النتيجة.

ـ لقد سئمت من التصوير. توقف..

ـ يجب أن نسجل كل شيء كي لا ننساه، وليتمكن أطفالنا من رؤيته حين يكبرون..

ـ لدينا ذاكرة تحتفظ بكل شيء. لا تسجل هنا على الأقل. توقف يا عبد الله..

.....

ـ سوف نرزق بصبي.. هلا أخبرتِني بشعورك؟

.....

ـ هلا نظرتِ إلى الكاميرا؟

(انتهى التسجيل)

أين ذلك الطفل الآن؟ ألا يجب أن يكون بين أحضاني؟ لِمَ لا أعلم بأنه لدي طفل؟ هل سرقه هذا الرجل مني؟ أم ماذا حدث؟

أمسكت بصور أخرى. حملتها بين يدي، لأستطيع أن أجمع الأحداث. هناك صورتي وأنا بجانب ذلك الرجل الذي كنت أدعوه.. لا أعلم بماذا.. لكني كنت معه..

وهنا صور زفافي وهو بجانبي! أهذا الرجل زوجي؟ لماذا لا أعرفه؟ أين هو الآن؟

لم أستطع تحمل ما تراه عيناي. قلبت الصورة. ربما ثمة شيء مكتوب في الخلف. نعم. هنالك هذه الملاحظة: (سمر الجميلة)..

بدأت أبكي، وأرمي الصور خارج الصندوق. أمسكت نفسي حتى لا أفقد سيطرتي..

سمر.. ركزي! لا تبكي! لا تغضبي! حاولي البحث من جديد..

رأيت صوراً كثيرة له. هنا وهو متخرج في الجامعة أو المدرسة. لا أعلم.. وهنا صور وهو يبتسم وبين يديه طفل صغير. هل هذا الصبي هو الذي تحدث عنه في التسجيل السابق؟ لكن لماذا لا يزورني لأتعرف إليه؟..

أمسكت صوراً أخرى تجمعنا.. كم يبدو سعيداً!

بدأت أرتجف من شدة الخوف. رميت الصور بعيداً عني. من هذا الرجل الذي تزوجته دون أن أعلم؟! كيف أقاموا حفل زفافي من دوني، وزيفوا صوراً لي؟!

أشخاص من مخمل

الأبـواب الزجاجيـة للمدخـل تريني بوضـوح الداخـل والخـارج. وفـي أحـد أرجـاء الفنـدق تقـع سـاعة معلقـة فـوق كرسـي ينتظـر عليـه الـزوار سـياراتهم أو حقائبهـم. ويوجـد مطعـم لا يجلـس فيـه إلا أفـراد الطبقـة المخمليـة. جميعهـم أعرفهـم وأميزهـم كالرقـم السـري لبطاقـة الائتمـان الخاصـة بـي. اللـون الأبيـض المنتشـر في كل بقعـة في الفنـدق يجعلـه مميـزاً، ولكنـه ممـل جـداً خاصـة إذا اسـتمر الشـخص بزيـارة المبنـى مـراراً، إذ سـوف ينفـر مـن الفنـدق فـي نهايـة المطـاف. وهـذا الشـعور يعيشـه كل الموظفيـن مثلـي تمامـاً.

جالسـة أتأمـل الـزوار مـن طاولـة الاسـتقبال، وأجاملهـم بابتسـامات وترحيـب لا ينتهيـان، طمعـاً فـي غـرس شـعور بالراحـة فـي أنفسـهم، وترغيبـاً لهـم بزيـارة الفنـدق مـرة أخـرى. هكـذا أمرنـا المديـر المسـؤول عنـا.

ـ ابتسـامة لا تنتهـي حتـى مغـادرة الضيـف الطاولـة،

لكن دون مبالغة. ابتسامة طبيعية جميلة كي لا يشعر الضيف بأننا نخدعه..

أتساءل أحقاً يصدقون ابتساماتنا المزيفة، أم نحن بارعون في التمثيل؟

أكثر ما يجعلني أشعر بالملل ليس فقط اللون الأبيض! بل إجبارنا جميعاً على ارتداء ملابس موحدة كأننا لا نزال في المدرسة. حتى حينما أرغب في الذهاب إلى البحر الذي يحيط بالفندق وأطلب من زميلتي أن تغطي مكاني ترفض، وأبقى هنا أتأمل الزوار دون أن يلاحظوني..

ـ كيف العمل اليوم؟

ـ جيد

ـ حسناً.. لا تخفي ابتسامتك.. أظهريها لهم ولو من بعيد.

ـ أبذل كل جهدي بخصوص هذا الموضوع..

هل هكذا نكسب الأشخاص؟ أم أنه أصبح مهووساً بموضوع الابتسامة.

ـ مرحباً

ـ مرحباً.. سعيدون لزيارتك فندقنا.. نتمنى ألّا تكون المرة الأخيرة.. كيف أستطيع مساعدتك؟

ـ لقد حجزت من موقع «بوكينغ»، لكنّي أريد أن تضعوا حقائبي في الغرفة، فأنا أرغب في الذهاب إلى السوق قليلاً..

ـ حسناً.. فهمت.. سوف أفعل ما تريدين. لكنني أحتاج رقم الحجز.

ـ أوه كم أنت ثرثارة! حسناً.. تفضلي

أطلت النظر في حقائبها وشعرها البني المحمر القصير، ووجهها الذي قامت بتعديله مراراً لتخفي تجاعيده، ولتبدو أكثر جمالاً، وفي ملابسها التي بالتأكيد صرفت عليها تقريباً ما يعادل رواتب جميع الموظفين هنا. لقد سئمت من هذه الطبقة المخملية التي يجب أن نخدمها بحسب أوامر مديرنا.

ـ سوف آخذ الحقائب إلى غرفة الضيفة..

ـ دعك أنت.. أنا سوف أحملها إلى الغرفة..

ـ لكنها وظيفتي..

ـ نعم.. لكن المرأة أوصتني أن أذهب بنفسي، وأضع لها حقائبها.

غرفتها جميلة تطلّ على البحر الذي لا أستطيع الذهاب إليه بسبب ضغط العمل المفروض عليّ. استلقيت على سريرها لأختبر شعور هؤلاء الأشخاص الذين يأتون إلى هنا. الغرفة لا تحمل اللون الأبيض الذي مللته، بل تحمل ألواناً هادئة مريحة. السرير من طراز قديم، لكنه مريح أكثر من أريكة منزلي. مكتب صغير تستطيع إنهاء أعمالها عليه بسهولة. لا أظن أنها تنهيها بنفسها، هناك بالتأكيد من يديرها عنها.

وتلك الحقيبة التي تحمل الكثير من الملابس والمجوهرات. لا شكّ أنها كذلك. فتحتها لأرى. ملابس تحمل ماركات غالية. لقد راق لي هذا الثوب الأبيض. سوف آخذه لي، ولن يعلم أحد، خصوصاً هي.

لكن.. أين وضعت الألماس؟

بحثت عنه كثيراً، حتى حملت أحد قمصانها، فتساقطت المجوهرات على الملابس التي عبثت بها. رأيت خواتم وعقوداً من الألماس.

ـ يجب أن تكون لي.. أنا من يستحقها.. أنا من يستحق هذه الحياة.

رغم أن حديثي مع نفسي كان صامتاً، فإن الخوف تملكني من أن يسمعني أحد.. ورغم أن الغرفة كانت خالية إلا مني، فقد أخذت أتلفت حولي..

فكرت كثيراً أن آخذ العقد والخاتم، وأقفل الحقيبة كما كانت.

فكرة مجنونة، لكنها كانت أقوى من أي شيء آخر. لذا فعلتها، وخرجت من الغرفة بهدوء. لن تلاحظ بالتأكيد، فهي تملك الكثير من الماس والمجوهرات، وبالتأكيد ذهبت للتسوق. ستشتري أشياء جديدة، ولن تتذكر ماذا وضعت في حقيبتها.

امرأة.. قطّة.. حديقة..

لا يحب الحديث كثيراً. يقضي يومه في حديقة منزله يسقي أزهاره. حمراء وصفراء وبيضاء وألوان لا تعد.. وبالطبع فهو لا ينسى خضراواته، وأهمها الطماطم، وعندما تنضج إحدى الحبات يقطفها، ثم يتفحصها، ويقربها إلى أنفه ليشم رائحتها. هذه العادة لا يتخلى عنها، فهو دائماً يخبر قطته:

- لقد نضجت الطماطم.. يمكننا أكلها..

ويطعم قطته منها..

بعد أن ينتهي يذهب إلى زوجته ليبشرها بما جادت به حديقته. يقدم لها عدداً من الحبات، ولا ينسى أن يضع بينها وردة بيضاء..

لكنّ مَي تقضي معظم وقتها عند جيرانها، أو تتحجج بزيارة أهلها..

ومع ذلك فحسن ما زال كما هو.. ما زال يفضل الصمت رغم محاولاتها استفزازه ليتحدث.. حتى عند غيابها يبقى في المنزل، ويقضي وقته في الحديث مع قطته إلى أن تعود، فيسود الصمت مرة أخرى..

لم يعلم قطّ لماذا كانت تقضي وقتها في المطبخ عندما يكون هو في الحديقة. ولم ينتبه يوماً أنها كانت تجلس تراقبه، وهو يتحدث مع قطته ومع أزهاره. إلا أنها تنكر هذا الشعور حتى أمام نفسها..

قطته التي لا تنام إلا بجانبه. لا تمشي إلا خلفه. ولا تجلس إلا بجانبه.. تدرك تماماً فحوى الحوار المتكرر بينهما:

ـ يجب أن تتخلص من هذه القطة. إنها تسبب لي المرض..

فيجيب بحزم:

ـ لم تمرضي.. أنت فقط تتمارضين..

فتهمس بصوت خافت:

ـ مجنون.. وسوف يظل مجنوناً.

قبل ذهابهم إلى النوم يخرج ليرمي القمامة، وفي كل مرة تقع عينه على تلك الوردة التي أهداها لها..

ثلاثون عاماً ولم يمل من محاولة إسعادها، وهي التي تلومه دائماً، وتتهمه بأنه أضاع عمرها، وبأنها سوف تموت وحيدة بسببه، وهو أيضاً سيموت وحيداً، والقطة وحديقته لن يغيرا شيئاً في حياتهما..

دائماً كانت تصرخ في وجهه:

ـ لم نستطع أن ننجب أطفالاً.. لا تحاول تجاهل هذه الحقيقة. لن يعوضك أي شيء عن الأطفال.. الوحدة سوف تلاحقنا دائماً..

ـ جيد أننا لم ننجب أطفالاً.. يكفيني ذنب القطة وهي تسمع تذمرك الذي لا ينتهي..

رسالة رسمية

عزيزي فارس

حاولت جاهدة منع نفسي من كتابة هذه الرسالة، لكن هناك شيء يجبرني دائماً على كتابتها. أخفيت الأقلام والأوراق، مُحاوِلةً نسيان هذه الفكرة اللعينة، إلا أنني فشلت. كنت أعلم أنك تعرف بمحاولاتي كسبَ اهتمامك. قضيت نصف وقتي في محاولة تقمص تلك الشخصية التي تحبها. حاولت واجتهدت. اشتريت الملابس التي رغبت أن تحبني بها. ووضعت مساحيق التجميل التي توقعت أنك تفضلها. تفاصيل حياتي كلها. لكن الأوراق التي في مكتبك كانت محط اهتمامك الأول. كنت أنتظر أن تخبرني برأيك في ملابسي الجديدة. الصحون الجديدة. الإضاءات الجديدة. إلا أنني أدركت أخيراً أن صمتك كان الجواب الوحيد الذي تمتلكه. هل تذكر عندما كنا نخرج معاً لتناول العشاء، وعندما نصل

ونجلس على الطاولة تبدأ عيناك تحومان في كل زاوية في المطعم، ثم تلتفت نحوي بتلك النظرة الباردة التي لا تعجبني؟.. أنت لا تعلم بأني حين أخرج معك كنت أنتظر انتهاءنا من هذه المجاملات.. ثم أغرق بالتفكير كيف أتخلص منك؟ هل أقتلك؟ أسمّمك مثلاً لأرتاح، ثم أقتل كل تلك الأفكار، عندما تمسك بيدي؟

فارس..

لو تعلم بأني لا أرى بوضوح وأنا أكتب لك هذه السطور. لكن انتبه لو رأيت أثر دمعة سقطت على الورقة وأزالت جمال حبر القلم الذي اشتريته لي قبل ثلاثة أعوام. سامحني، ثم تجاهلها، واعتبرها دمعة فرح، لأني سوف أكمل طريقي من غيرك.. صدقني.. لم يعد بإمكاني أن أرى وجهك مرة أخرى، ولا أستطيع أن أستيقظ على رائحة عطرك المنتشرة في المنزل بعد رحيلك إلى عملك، وليس لي قدرة على تأمل صورنا معاً.. لكن لو لاحظت اختفاء إحدى الصور التي تجمعنا فتذكر بأن ذلك لسبب وحيد هو أني لا أحبّ الاحتفاظ بالذكريات سيئةً كانت أم جميلة..

لقد قمت بترتيب ملابسي هذا الصباح بعد ذهابك إلى عملك، وكنت سعيدة. سعيدة لأني سأصبح حرّة

بعد أن أنهي هذه الرسالة. أعلم أنك ستغضب وأنت تقرأ هذه الرسالة، لكن تذكر أنه ليس هناك أهمية للغضب، فأنا اتخذت قراري. أردت فقط أن أخبرك ببعض المخططات التي رسمتها بعد خروجي من باب منزلك. سوف أقوم برحلة إلى مدن عدة، وأولها روما، المدينة التي أخبرتك مراراً عن جمالها، وكنت كل عام تعدني بزيارتها. ليس عليك بعد اليوم أن تتعب نفسك وتعدني بزيارتها مثل كل سنة.

وصلت قريباً من نهاية هذه الرسالة، لذا أردت أن ألفت انتباهك إلى أمر. احذر أن تنسى الغاز مشتعلاً. وانتبه أيضاً من حرارة المكواة كي لا تحرق نفسك، وتضطر إلى تأجيل توقيع تلك المعاملات، فتتراكم، وترهقك..

وداعاً مرة أخرى..

ملاحظة: أتمنى أن تعتبر كلمة عزيزي في المقدمة المجاملة الأخيرة التي سوف أهديها لك، أو اعتبرها من شروط الرسالة.

سهى

إعلانات مبوبة

لا أدري إن كان ما أفعله صواباً أم لا، لكنني هنا تائهة أحاول أن أضع أفكاري حتى أنقذ حياتي وحياة طفلي الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات. لست أماً أنانية حين قررت أن أمضي دون أن ألتفت إلى الأيدي التي أشفقت علينا، لأننا لسنا بحاجة إلى من يذلنا أو يهيننا أو يملكنا بعد أن أقبل مساعدته. أعلم أنني سوف أنجح. سوف أخرج من هذا البؤس، ليس من أجلي إنما من أجل محمد الذي كلما التفتّ إليه وجدته ينظر إليّ تلك النظرة التي تنسيني ألم الفقر والبؤس الذي يأكلنا ويأكل ملابسنا، حتى أصبحنا نخجل من لبسها. أعلم أن محمد يدرك محاولاتي لإسعاده. خرجنا من الغرفة التي استأجرناها وذهبنا إلى غرفة مشتركة مع العجوز التي تعمل في خياطة الملابس. ممتنة لهذه العجوز. رغم كل تلك الظروف التي تحيط بها؛ إلا أنها تساعدني عند حاجتي لها. وها أنا هنا أمشي في شوارع المدينة التي لا تأبه بي

باحثةً عن همّ آخر يشغلني عن همّي، فأنا إلى الآن لم أستطع أن أجد عملاً آخر بعد العمل الذي طردت منه. أتذكر جيداً الحديث الذي دار بيني وبين المسؤول..

ـ أدخلتك العمل من أجل الأيام التي كنت تأتين فيها لخدمتي في منزلي. أريد أن تسامحيني الآن، فلا مجال لي أن أبقيك أكثر. تنقصك القدرة على التعامل مع الزبائن الأجانب. المدير يبحث عن عمال يملكون شهادة جامعية، ويجيدون اللغة الإنجليزية..

ـ لا تقلق.. أفهم ذلك، ولا ألومك طبعاً..

اضطررت أن أمثل دور المتفهمة المتقبلة. لا أدري إن كان ذنبي أنني لم أكمل دراستي، أم كان ذنب أسرتي حين قررت تزويجي مبكراً. كنت أريد أن أصرخ، وأخبره..

ـ ليتك تعلم مدى حاجتي لهذا العمل..!

لكن مثلما يحدث دائماً مضيت بصمت. اليوم يجب أن أجد وظيفة.

دخلت غرفتنا الشاحبة التي لا تحتوي إلا على سرير واحد شبه مكسور، وضوء خافت، وآخر لا يعمل. حيطان لم يعد لها لون. جلست على الكرسي الذي تجلس عليه العجوز عندما تقوم بالخياطة. لقد مضى هذا اليوم سدى.

لا وظيفة، ولا مال بين يدي. فقط الأمل الذي أتمسك به حتى تمضي الحياة.

ما أخشاه ألا أتمكن من دفع الإيجار الذي اتفقت مع العجوز على أن نتقاسمه. يا لخجلي من نفسي.. لا أستطيع أن أخبر نفسي بأنني هذه المرة أيضاً لم أنجح. لم أستطع أن أجد العمل الذي يؤويني، فكيف لي أن أخبر العجوز بهذا؟

ظللت طوال الليل أفكر وأتأمل الغرفة.. إلى أن سرقني النوم من هذا كله.

بدأ ضوء الشمس يتسلل إلى الغرفة. استيقظت لأبحث عن عمل. ربما أجد اليوم شيئاً. تركت محمداً عند جيراننا. مشيت على الأرصفة المزدحمة، لأنتقل إلى زوايا أخرى ممتلئة بالناس. صفحة الإعلانات في الجريدة التي يحركها الهواء بهدوء بين يدي لونتُها بألوان فاقعة لأميز الأماكن التي أتوقع أن أجد فيها ما أبحث عنه. لفت نظري إعلان معلق على باب مكتب في زاوية المدينة. ميزت من كلماته عبارة واحدة مكتوبة بالخط العريض:

(مطلوب للعمل)

أسرعت في خطواتي. كدت أقع من فرحتي. بدأت أقرأ تكملة الإعلان:

(رجل يمتلك مهارات في استخدام الحاسوب)..

رحلة

أغفو قليلاً. تأتيني أصوات صراخ فأنهض من سباتي متلصصاً أسمع ما يقولون. لكن لا أفهم ماذا يحدث هناك. أصوات تزعجني وتخيفني. ألتف على نفسي لأنام مرة أخرى متظاهراً بأن شيئاً لم يحدث.

أستيقظ ثانية. تحدثت معي أمي وأخبرتني بأنها سعيدة لعدم شعوري بما حدث بالأمس، لكنني لا أستطيع أن أخبرها بأنني شعرت بكل شيء..

إغفاءة أخرى. فتحت عيني على الطعام. إنه طعامي المفضل. أظن هذه مكافأتها لي بسبب ما حدث بالأمس..

أكلته بتلذذ، وظللت مستيقظاً أنصت لسورة مريم..

اختفى صوت القرآن، لكن صوت أمي كان مسموعاً وهي تسألني:

ـ ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟ طيار؟ مهندس؟ ضابط؟ طبيب؟

الكلمة الأخيرة بدت لي جميلة...

سوف أنام أخيراً. يبدو اليوم هادئاً. لا يوجد صراخ. لذا أستطيع أن أنام بهدوء.

ها هي أمي تريني الملابس التي اختارتها لي. لكن لماذا كل ملابسي تحمل لوناً واحداً؟.. الأزرق.. حتى غرفتي التي اختارتها لي تحمل اللون الأزرق..

لم أهتم كثيراً لما يحدث. كل ما يهمني طعامي وأن أنام بسلام..

لذا قررت أن أغفو بما أن الغرفة ولونها لم يعجباني..

استيقظت على حركة أمي السريعة. الرياضة. لا أحب أن تقوم أمي بالرياضة، فهي لا تساعدني على أن أنام براحة..

ظللت أتلصص على أمي إلى أن شعرت بأنها في غرفتها، فغفوت...

ثم قطع نومي بكاء أمي. قالت لي مرة بأنني لا أشعر

بحزنها وفرحها.. لو أستطيع أن أخبرها بأنني أشعر بكل شيء..

هذه المرة فقط.. يبدو أن هناك من تسبب في حزنها، لكن لم أستطع أن أسمع ما حدث.. لذا لمستها بقدمي لتعلم بأنها ليست وحيدة..

صوت

أمسك هاتفه وبدأ يضغط على رقمها: 3224536...

ـ أعتقد هذا هو رقم هاتفها..

ظل ينتظر خلف سماعة الهاتف كي يسمع الرد..

ـ لم تجب بعد.. لم تجب..

أغلق الهاتف وبدأ يفكر..

ـ يبدو أنني أخطأت في كتابة رقمها..

فتح الهاتف مرة أخرى، وأعاد الاتصال.. وأيضاً لم يجب أحد.. أغمض عينيه. كتم أنفاسه. ثم أطلقها. بعدها فتح هاتفه بسرعة، وبدأ يكتب الرقم نفسه بحماس..

ـ ستجيب.. ستجيب.. لقد كتبت رقمها الصحيح..

وظل ينتظر إلى أن سمع صوتها..

ـ سارة؟

ـ من سارة؟

ـ ألا تذكرينني؟

صمتت قليلاً، ثم تابعت قائلة:

ـ أظن أنك اتصلت بالرقم الخطأ

قطع مكالمته الهاتفية صوت..

ـ أوقف التصوير.. سوف نعيد المشهد..

صورة عائلية

تلك الصورة الجميلة مازالت متصلبة في الذاكرة لا تغيب. أمي التي تملك شعراً أسود داكناً، وبشرة بيضاء كالثلج، وتلك التجاعيد التي تظهر حين تبتسم فتظهر لي شقاء عمرها الجميل. كانت تضع دائماً أحمر شفاه والقليل من الكحل لتبرز عينيها الصغيرتين. لكنها في الحقيقة أجمل بكثير عندما لا تضع على وجهها مساحيق تجميل. اعتدت منذ صغري أن أبدأ صباحي بوجهها، ثم أجلس على مائدة الطعام لأتناول فطوري. كانت دائماً تحضر لي الوجبات التي أحبها. كوب حليب، وبجانبه حلوى يسيل منها الكاكاو. كانت تنصحني دائماً بعينين صلبتين..

- يجب أن تتوقف عن تناول هذه الأطعمة. لا أستطيع منعك منها إذا لم تقتنع أنت.

وكنت أبتسم ابتسامة صفراء وأبدأ بالتهام طعامي. ما

زلت أتذكر حين تشاجرت مع طالب في المدرسة، ونادوا والدتي ليتحدثوا معها. كنت لا أريد رؤيتها، ولا أريد سماع غضبها. نادتني المديرة وذهبت ورأسي لا يرتفع عن الأرضية المزينة بمربعات السراميك رخيصة النوع. دخلت غرفة المديرة. وقفت جانباً..

ـ لا تفعليها يا أمي.. لا تعاتبيني هنا..

قطعت تفكيري المديرة قائلة لأمي:

ـ ماذا يجب أن نفعل معه؟ هو دائماً هادئ، ولا أريد أن أعاقبه، فهذه أول مرة يقوم بمثل هذا التصرف..

ـ أنا متأكدة من أن عمر لم يفعل شيئاً عن قصد. هو طيش أطفال.. سوف يصبحان صديقين..

ـ صديقان؟! لا.. لا.. حتى في المنام لن نصبح صديقين..

التفتت أمي إلي..

ـ سأتحدث معه.. ولن تحدث مشكلة أخرى..

غادرنا المدرسة. وأمي لم تتحدث معي منذ ركوبنا السيارة، إلى أن أخذت طريقاً أخرى غير طريق منزلنا.

سألتها بتردد..

- إلى أين نذهب؟

- إلى مطعمك المفضل. لا بد أنك جائع..

طلبت كل ما كنت أشتهيه من وجبات. سرقنا الوقت ونحن نتحدث ونضحك، لكن الأهم من هذا كله أننا وصلنا المنزل قبل والدي.

أبي بشعره الرمادي. بمزاجه المتقلب. ثمة موقف عالق كالمسمار في ذاكرتي، فهو دائماً يخبرني عن ذكريات طفولته، وحتى عندما كان يكرر بعضها يبقى لدي الشغف نفسه..

- أتعلم يا عمر.. عندما كنت صغيراً لم أكن أهتم بالدراسة. كنت أذهب إلى المدرسة من غير طموح. وفي إحدى المرات في حصة الفنّ طلب منا الأستاذ أن نتعلم النحت، وترك لنا حرية اختيار الفكرة لننحتها. لم نفكر كثيراً، واخترنا أن ننحت رجلاً. بعد أن انتهينا من النحت أخذنا نتأمل المجسم. كان الرجل يحمل رأساً كبيراً ورقبة صغيرة كالقلم. لم نهتم كثيراً لملامح وجهه. لكن.. أتعلم ما المضحك في الموضوع؟

ـ ماذا؟

ـ عندما أردنا تسليمها للأستاذ سقط الرأس..

أختي ريما كانت دائماً تجلس معي في وقت فراغها. وعندما أطلب منها أي شيء تنفذه وهي سعيدة. كانت سعيدة دائماً.. إلى أن عادت لمنزلنا وحيدة بعد زواج دام سنتين لعدم قدرتها على الإنجاب، فحاولت التخلص من هذا العبء وعادت إلينا. بعدها تغيرت كثيراً.. لكني ما زلت أنتظرها.. أن تعود سعيدة، هي تعلم أنني أنتظرها.

جدتي تملك وجهاً مليئاً بالتجاعيد، وشعرها متساقط لكنها لا تخجل منه. لم تنس أبداً ماضيها، رغم أنها تخطئ باسمي لتناديني ريما فأضحك، فتشتمني. جدتي التي كانت تحلم دائماً بي أن أكون عريساً. كنت دائماً ألبس غترة أبي، ولا أنسى أبداً بشت زواجه بأمي. وتشغّل جدتي الأغاني القديمة التي تحتفظ بها في المسجل الذي تحبه. كنت أحاول تقليد والدي في مشيته في يوم زواجه، بعد أن شاهدت تسجيل يوم زواجه بأمي أكثر من مرة. جدتي التي تنقذني من غضب والدي عندما أقوم بتصرفات تغضبه. وكل يوم بعد صلاة المغرب تجلسني بجانبها لتسافر بي إلى الماضي، وتخبرني حكايات

متنوعـة، أحيانـاً عـن الجـن، أو صديقاتهـا، أو جـدّي فهـو حبهـا البطولـي. لـم أنـس أيضـاً ذلـك المسـجل الـذي بقـي لهـا مـن جـدي. لـم ترغـب بشـيء آخـر غيـره، رغـم أنـه لا يعمـل أحيانـاً، فتقـوم بخبطـه علـى الأرض لتعـود إليـه الحيـاة.

غرفتـي كانـت مخبئـي الوحيـد مـن هـذا العالـم القاسـي. كـم اشـتقت للغـرق فيهـا! كـم اشـتقت إلـى سـريري الـذي قمـت باختيـاره لأشـعر بأنـي أفضـل رجـل فـي العالـم! وعندمـا رأيـت دعـم أبـي لـي وهـو يقـول لأمـي:

ـ أصبح رجلاً.. وأصبح يختار لنفسه سريراً..

كنـت أحلـم بارتيـاد الفضـاء، ودائمـاً كنـت أحـب أن أراقـب السـماء لعلـي أصـل يومـاً هنـاك، وأرى مـا تخبئـه. ليتحقـق مثـل هـذا الحلـم أظـن أنـه يجـب علـى رائـد الفضـاء أن يتخلـى عـن عائلتـه ونفسـه..

ذكريات تسعة أشهر

كنت طفلاً صغيراً، وكنت أحملك لكي تستحمّ، وحين أضع قدميك الصغيرتين داخل الماء ترفعهما متعلقاً برقبتي، وتبدأ بالبكاء..

اليوم أبحث عنك، ولا أجدك.. أتصل بك، ولا تجيب.. أخبرني كيف قتلت خوفك؟ وأنا منذ ولادتك إلى الآن أخشى أن يصيبك شيء، وأحلم بك حين لا تزورني..

أسأل إخوتك عنك ليجيبوا بأنك مشغول. لكني أعذرك. كما تعلم، أنا والدتك ألتمس لك العذر دائماً، لكن لا تنسني أيها الطفل الشقي.. لا تنس والدتك..

لا تنس تلك الأيام، وأنت تجلس بجانبي لأعلمك الحروف الأبجدية. تتلعثم وأنت تنطقها، وأصبر عليك حتى تخرج من بين شفتيك بالطريقة الصحيحة..

إلى الآن يرن في أذني صوتك وأنا أجبرك على أن تلفظ الأحرف بطريقة سريعة، فتقول:

ـ ا ب ث ت..

ثم تتوقف متردداً حائراً من نظرتي، تنتظر مني أن أصحح أخطاءك...

ولا تنس، أرجوك، تلك الطريقة السرية التي أخبرتك بها لتحفظ جدول الضرب. قلت لك:

ـ إياك أن تخبر معلمك بهذه الطريقة. اكتمها حتى عن زملائك في الصف..

نظرت إلي حينها بتعجب وحيرة، ثم ابتسمت، ووعدتني بأنك لن تبوح بالسرّ أبداً..

لو تعلم بأنني لم أستطع أن أخبر إخوتك بأنني أنتظرك على زاوية الشباك. ربما يجبرك الحنين أن تمر، لكنك كنت دائماً قوياً وعنيداً كما اعتدت أن تكون منذ صغرك..

كنت دائماً تضيع وقتك في مشاهدة برامج المصارعة، ثم تحاول تقليدهم فتضرب أخاك الصغير..

تعبت من طرح الأسئلة نفسها..

ـ بماذا أذنبت؟.. هل قصرت في حقك؟.. هل عجزت عن تربيتك جيداً؟..

وعندما أضيع بين الأجوبة أذهب إلى إخوتك.. أخاطبهم..

ـ هل سيعود قريباً؟

ـ لن يعود أمي.. انسي هذا الموضوع..

أخبرني كيف أنسى، وأنا لم أتخلّص من ذكريات تلك الشهور التسعة التي حملتك بها؟!

إنني أنتظرك أيها الطفل الشقي.. فلا تتأخر في العودة..

أحقاً أغضبك كلامي حين أخبرتك بأن وقت زواجك قد حان، وبأنه من الضروري أن تتحمل مسؤولية مستقبلك؟.. لو كنت أعلم أنك ستغضب، وستتوقف عن زيارتي، لصمتّ..

لا عليك..

لا تتزوج.. ولا تغضب..

المهم أن تعود إلى المنزل..

لا أستطيع أن أصبر أكثر.. لذا أخبرت أخاك بأني سوف أذهب إليك.. وها أنا قد أتيت.. وأتمنى ألا أكون قد أزعجتك..

لتنم بسلام..

لعبة الاختباء

أحـلام ورديـة ترفـرف علـى ذهنهـا، وشـعرها المهمـل علـى وجههـا وعينيهـا اللتيـن تبحثـان عـن أي شـيء جميـل لتمـد يدهـا نحـوه وتركـض بـه فـراراً مـن صاحبـه. اعتـدت أن أراقبهـا وهـي تتسـكع فـي أرجـاء المنطقـة. أراهـا أحيانـاً فـي زاويـة الـدكان تحـاول أن تأخـذ سـكاكر دون أن تدفـع ثمنهـا، وعندمـا يغضـب صاحـب الـدكان تسـرق أو تخـرب ترتيـب السـكاكر وتهـرب..

والخبـاز لا يرضـى أن تدخـل عنـده، فلـن ترحمـه هـو أيضـاً. وصاحـب المطعـم يكرمهـا أحيانـاً بغـداء، وشـرطه الوحيد ألا تخـرب المطعـم وتتسـبب بنفـور الزبائـن مـن مطعمـه.

لكنهـا اليـوم لـم تـأت. لا أعلـم أيـن اختبـأت. أشـعر بأنهـا فـي أمـان حيـن تكـون أمـام عينـي. ولا أعلـم السـبب.

لكنـي متأكـد مـن أنهـا سـوف تخـرج مـن إحـدى تلـك الزوايـا التـي تختبـئ فيهـا.

انتظرت. حل الظلام. ولم تأت. بدأ الشعور بالخوف يتملكني..

ـ أهي بخير؟

ـ أين هي الآن؟

ـ ماذا تفعل؟

ـ هل أصابها مكروه؟

أفكار.. وأسئلة لا تتوقف..

حاولت البحث عنها.. ولكن دون فائدة..

قررت العودة إلى المنزل.. لكنني أشعر بأنني شبه مجنون.

قطعت زوجتي تفكيري..

ـ ما الذي يشغلك؟

ـ لا شيء.. العمل فقط..

لم أستطع أن أغمض عيني. كانت عالقة في ذهني كمشهد جميل في ذهن رسام. بدأ يحلّ الصباح، وأنا ما زلت أحاول النوم..

ـ لا.. لا.. لن أذهب إلى العمل.. سوف أبحث عنها..

استيقظت مفزوعاً من نومي. لقد أضعت الوقت. كيف استطعت أن أنام؟ كيف لي أن أغفو قبل أن أتأكد من أنها بخير؟..

ذهبت مسرعاً لأرتدي بدلة العمل. سرّحت شعري على عجل. وعند مغادرتي للمنزل نادتني حصة..

ـ توقعت أنك لن تذهب إلى العمل..

ـ اتصلوا بي.. يجب أن أذهب..

غادرت. اتجهت إلى المنطقة التي اعتدت أن أراها فيها. انتظرت طويلاً. شعرت بأن الوقت متوقف..

ثم رأيتها بشعرها الأشعث، وهي تمشي متجهة إلى البقالة. ارتسمت ابتسامة على شفتي. ابتسامة راحة وطمأنينة.. ثم خطرت في بالي فكرة..

ـ هل يجب أن أتحدث معها؟

ثم سرعان ما غيرت رأيي. اخترت طاولة في المطعم المقابل، بحيث أراها جيداً. استوقفني حذاؤها المغبر. قميصها بلونه الباهت الذي لم تغيره منذ زمن بعيد..

رن الهاتف. إنه مديري في العمل.

ـ لِمَ لَمْ تأتِ اليوم؟

ـ إنها الحالة نفسها التي كنت أعمل عليها منذ فترة.. هنالك مستجدات بشأنها..

ـ حسناً.. سوف أقبل هذه الذريعة.. هذه المرة فقط..

وأغلق الهاتف في وجهي! ذريعة؟! أليس هذا عملاً يجب أن أقوم به!

عدت أحدق في المكان لأرى أين ذهبت. وقفت مستطلعاً ما حولي. لكنني لم أجدها. ذلك المدير أفسد كل شيء.

قررت العودة مبكراً إلى المنزل كي لا تطرح حصة الكثير من الأسئلة. خرجت من المطعم معلناً انهزامي، ومتيقناً من أنني لن أستطيع التحدث معها، كما أنني لن أتمكن من إنقاذها.

وأنا في طريقي إلى سيارتي المركونة عند مواقف الحديقة لمحتها جالسة على كرسي. أسرعت بخطواتي خشية أن تهرب مني مرة أخرى..

ـ ماذا تفعلين وحدك في هذا الليل؟

ـ هنا منزلي. ألا ترى؟ انظر إلى تلك الزاوية. يوجد سرير. سريري..

ـ ذلك الكرسي؟ أين والداك؟

ـ ليس كرسياً. إنه سريري. هذه لعبة. والدتي طلبت مني أن أختبئ في الحديقة، وإن وجدتني فسوف أخسر. لم تجدني إلى الآن. أنا أذكى منها. أليس كذلك؟

عقوبة

2005/4/20

أمي الغالية..

كيف حالك؟

كيف أصبحت؟

لقد تغيرت كثيراً يا أمي. كل تلك الأحلام التي حلمتها معي انهارت، وتركتني غارقاً وحدي.

لم أحزن. لم أغضب. وهذا ما أخافَ أختي مَي. كانت تحاول أن تستجوبني كل يوم بهدوء.

لم أتمكن من أن أجيب. ليتك كنت هنا. ربما كنت استطعت الإجابة.

مرت 9 سنوات على الفاجعة التي حلت بنا، إلا أنني أشعر بها كل يوم. هذا الألم لا ينتهي يا أمي، ولن ينتهي.

لـم أنسَ أبـداً عندمـا استيقظت مـن نومـي خائفـاً مـن ذلـك الكابـوس المـروع الـذي رأيتـه. هربـت مـن فراشـي إليـك. فتحـت البـاب بقـوة أناديـك:

ـ أمـي... أمي..

والدموع تنهمر على خدي.

فتحـت بـاب غرفتك، فتصلبت مكاني محاولاً استيعاب مـا أراه. توقفـت عـن البـكاء، وتلاشـى خوفـي مـن ذلـك الكابـوس. ظللـت أراقـب صورتـك الأخيـرة متدليـة مـن الأعلى. حبل موصول إلى الثريا كان ملتفاً حول رقبتك.. حائراً، عاجزاً، ظللت أراقب وجهك الـذي ازرق لونـه. لـم أتمكـن مـن الصـراخ. ولا حتـى البـكاء..

خدعتني يا أمي. خدعتني حين قلت لي:

ـ سـتذهب معي إلـى السـوق. نحتـاج حبـلاً جديـداً لنشـر ملابسـنا..

وأضفت وأنت تضحكين:

ـ لقد انقطع الحبل القديم..

كيـف اسـتطعت أن تكذبـي، وأنـت مـن أخبرنـي بـأن الكـذب حـرام؟!

هل تذكرين تلك السكاكر المفضلة لدي؟ لم أستطع تذوقها بعد آخر مرة قمت بشرائها لي. تمنيت كثيراً لو لم تشتريها لي. كانت ستبقى المفضلة لديّ..

تركتني. كيف لك أن تفعلي هذا بي وبإخوتي؟ كيف استطعت اتخاذ مثل هذا القرار؟

أهي علاقتك بأبي؟.. أكانت هي كل ما يهمك في هذه الحياة؟.. لم أعلم أنك أمٌّ أنانية إلا في تلك الليلة.

ثم.. لماذا اخترت يوم ميلادي بالذات؟..

لقد قلتُ لِمَي بصراحة:

ـ لا أريد أن أرى أي شيء يخص يوم ميلادي، أريد أن أبقى وحدي..

ومع ذلك أريدك أن تعلمي بأن صورتك الأخيرة يا أمي لم تغادر ذهني إلى الآن. أشعر بأني أعيش تلك اللحظة كل يوم. لذا قررت أن أخبرك بأنني اشتريت حبلاً يشبه حبلك، وعلقته على الثريا، استعداداً لخوض رحلتك التي خضتها.

مراد خالد 1990/4/20 إلى 2005/4/20

❋ لم أستطع منعه من إيذاء نفسه.. رسالته الأخيرة هذه قلبت حياتي.. لم أتوقع أبداً أنه سيعاقب نفسه ويعاقبني على ذنب لم أرتكبه.. مجرد وهمٍ عاشه في إحدى نوبات مرضه..

الكاتبة

*** مريم سعيد الزعابي:**

- كاتبة إماراتية من مواليد مدينة أبوظبي (1998)، طالبة جامعية في كلية التقنية العليا.